الفصل التاسع

المثل الأعلى

قبل أن نشرع فى بناء بيت يضع المهندس له رسما، وقبل أن يضع هذا الرسم كانت فى ذهنه صورة كاملة للبيت يستملى منها صورته التى يرسمها. وكذلك الشأن فى واضع الرواية، قبل أن يخرجها الى الوجود كانت مرسومة فى ذهنه، وكل انسان يجب أن تكون عنده صورة كاملة لما يودّ أن تكون عليه حياته المستقبلة، وكثيرا ما يسائل الإنسان نفسه : ماذا أكون؟ ما الذى أطمح أن أكونه فى مستقبل حياتى؟ ما الإنسان الكامل الذى أسعى لأن أتمثله يوما ما؟ فالصورة التى فى ذهننا نودّ تحقيقها ونستملى منها لنجيب على هذه الأسئلة تسمى فى عرف الكتّاب الحديثين « المثل الأعلى » .

وهو يميز الإنسان عن غيره من الحيوان، فإنا نرى الحيوانات تعيش على نمط واحد، ليست فى رقىّ مستمر، فمعيشة القط قديما هى معيشته اليوم، وكان النحل يبنى خلاياه على أشكال سداسية

كما يبنيها الآن ، أما الإنسان فدائم الرقيّ ، هو اليوم غيره فى القرن الماضى بل غيره بالأمس ، لأن أمامه «مثلا أعلى» يجدّ فى الوصول اليه ، وكلما قرب منه سبقه المثل .

ويجب أن يكون لكل انسان «مثل أعلى» يسعى لتحقيقه ويوجه أعماله للوصول اليه ، ذلك لأن الإنسان فى هذه الحياة كقائد السفينة فى البحر المتلاطم الأمواج ، لا يمكنه أن يصل الى المرفأ حتى يعرف أين المرفأ ، ويرسم خطة للوصول اليه ، وإلا تنكب ، وكانت سفينته عرضة للارتطام ، وكذلك يحيط بالإنسان قوى مختلفة : شهوات تتجاذبه ، وصعوبات تعترضه ؛ ومؤثرات متباينة ، فإن لم يحدّد غرضه ويعيّن مثله الأعلى تقسمته هذه القوى واضطربت مسالكه .

وللمثل الأعلى تأثير فى النفوس ، فهو دائم الشخوص أمام نظر الإنسان يجذبه نحوه ويدعوه لأن يحققه . وإن أعمال الانسان وطريقته فى الحياة تدل على مثله الأعلى «ما هو» — وكل المؤثرات فى الأخلاق من بيئة ومنزل وتعليم انما تُصلح الإنسان بواسطة إصلاح المثل الأعلى ، أما المؤثر الوحيد مباشرة فهو ذلك «المثل» .

اختلاف المثل الأعلى — تختلف المُثُل العليا عند الناس اختلافا يكاد يكون بعدد رءوسهم ، فهذا مثله الأعلى رجل

غنيّ متمتع بكل ملذات الحياة، وذلك مثله إنسان كامل العقل، قد تفوّق فى العلوم وتضلع من المعارف، وآخر مثله وطنى يدافع عن حقوق وطنه ويرفع مستوى أمته، كذلك يختلف سذاجة وتركبا فقد يكون مَثَلُ شخصٍ صورة ساذجة رسمها مما يسمعه من والديه، وقد يكون مثلُ آخر صورة مركبة قد رسمها بعد أن بحث فى الأخلاق بحثا علميا، وعرف الفضائل ورتبها حسب ماصح عنده من مقياس الخير والشرّ.

والإنسان الواحد يختلف مثله من حين لآخر، والأمة الواحدة تختلف مُثُلها كلما تدرّجت فى معارج الرقّ، وليست الصعوبة أن يجد الإنسان أو الأمة مثلا أعلى، فالمُثُل كثيرة لاعداد لها، وإنما الصعوبة اختيار أحسنها وأنسبها.

وليس فى وسع الأخلاقىّ ولا الفيلسوف أن يرسم مثلا أعلى دقيقا يوافق كل انسان وكلّ أمة، فالمثل الذى يتفق مع غرائز إنسان ودرجة عقله من الرقّ والبيئة التى تحيط به ربما لا يوافق الآخر، لاختلافه فيما ذكرنا، اللهم إلا اذا رسم الأخلاقىّ أوالفيلسوف صورة عامة اقتصر فى رسمها على ما يوافق سواد الناس، كالخياط يعمل ثوبا واسعا يصح أن يلبسه كثيرون مع تعديل بسيط.

وكل الذى نستطيع أن نقوله إنه ينبغى أن يكون المثل الأعلى للشخص صورة كاملة تمثل خير إنسان يستطيع الشخص أن يكونه فى كل شأن من شؤون حياته ، ففى عمله مثله أن يكون أحسن ما يستطيع : من جدّ وأمانة وإتقان ومهارة ، وفى سياسته لنفسه مثله أن يكون ضابطا لنفسه ، يعمل بإرشاد عقله ، وفى معاملته للناس مثله أن يعاملهم كما يُحب أن يعامَل ، وأن يحب الخير لهم كما يحبه لنفسه .

مم يتكوّن المثل الأعلى — أهم عامل فى تكوّن المُثل المنزل والمدرسة والدّين ، فتربية الناشئ المنزلية ، وما يسمعه من أبويه ، والنظام الذى يسير عليه بيته وما يراه فى المدرسة ، وما يسمعه من مدرسيه ، وما يلزمونه بقراءته من الكتب ، وما يحببّونه اليه من عظماء الرجال ، والدّين الذى يتدين به ، وما يحويه من نظام ، وما يرسمه من شكل الحياة الأخرى ، كل ذلك له أكبر الأثر فى تكوين المثل الأعلى ، وكذلك غرائز الانسان الطبيعية لها أثر كبير فى انتخاب الصورة التى تتخذ مثلا ، فالميول الموروثة من شجاعة وهمة أو جبن وخمول تعين على تحديد المثل الأعلى ، وهى عامل قوىّ فى تكوينه .

نمو المثل — يكاد يكون لكل إنسان مثل أعلى ولكن لا يشعر به من أين أتاه، وسبب ذلك أن المثل يتكوّن مع الإنسان فى نشأته وينمو بنموه، فلم يكن شيئا جديدا منفصلا عنه حتى يشعر به، ويعرف متى أتاه، ومن أين جاءه، يتكوّن المثل جرثومة فى أثناء التربية المنزلية، ويكون لما يسمعه من القصص — ولو خرافية — دخل فى تكوينه، ثم يتوارد عليه التغير كلما وجد مؤثر جديد، من رواية يقرؤها أو حكاية يسمعها أو تمجيد لعمل عظيم، أو ذم لعمل حقير، وإن فى طبيعة الناشئين فى أوّل حياتهم ميلا الى سماع قصص الأبطال وكبار الأعمال وعجائب الحوادث، وذلك — ولاشك — مما يساعد على تنمية المثل عندهم، فإذا خرج الشاب الى معترك الحياة كان لتجاربه فى عمله، وتبادل الأخذ والعطاء مع الناس ما يحدّد غايته فى الحياة وينير أمله ويوضح مثله، وباتساع نظر الإنسان فى الحياة وكبر عقله يكمل المثل وتتم أجزاؤه.

وكما أن المثل عرضة للكمال والاتساع كما بينا كذلك هو عرضة للنقص والضيق، فالعمال الذين يقضون حياتهم فى عمل يدوى محدود، ثم لا يصادفون بعد قضاء نهارهم ما يفيد عقلهم، أو يوسع نظرهم، يضيق مثلهم، ويتحدّد أملهم، وذلك شأن طائفة كبيرة من العمال وكتبة الدواوين الذين لا يؤدّون فى الحياة غير عملهم الآلى،

فلا يرقون مداركهم، ولا يوسعون أنظارهم، وحياتهم ليست إلا يوما واحدا متكررا .

وفى ضيق المثل خطر عظيم، فالمثل هو الذى يبعث فى الإنسان روح العمل، ويزيد فى نشاطه وقوته، وهو الذى يصحح حكمه على الأشياء، فالإنسان عادة عند الحكم على شىء أو نقده يقيسه بمثله، ثم يحكم بالخطأ أو الصواب، وبالخير أو الشر، فاذا تحدد المثل وضاق قلّ نشاطه وساء حكمه، وعلى العكس من ذلك اذا ترقى مثله .